

مستويات السلم الحجاجي في القصص القرآني

د. فايزة بوسلاخ
جامعة مستغانم

Abstract:

This study is trying to show evidence and proof in the Arab lexicon and dictionary vocabulary located at the level of the Koran force. The lecture focused on the Arabic language levels in the Qur'an through Quranic stories such as the story of the Prophet ..Ibrahim and Prophet Joseph.

Keywords:

Quranic stories- Evidence and proof in the language- Semiaiaat communication-
Linguistic lexicon- Vision.

لقد حظي الحجاج في الآونة الأخيرة باهتمام اللغويين والبلاغيين والمناطق والفلاسفة والأدباء، وعلماء النفس وعلماء الاجتماع وغيرهم. كل يهتم به في مجاله، فأصبحنا نتحدث عن الحجاج اللغوي، والحجاج البلاغي، والحجاج المنطقي، والحجاج الفلسفي، وأنواعاً أخرى من الحجاج. ولذلك يمكننا أن نعتبر الخطاب القرآني خطاباً حججياً، لكونه جاء رداً على خطابات تعتمد عقائد ومناهج مختلفة، فهو يطرح أمراً أساسياً ويتمثل في عقيدة التوحيد، ويقدم الحجج بمستويات مختلفة، والمدعمة ضد ما يعتقد المتلقون من مشركين وملحدتين، ومنكرين للنبوة والمجادلين. ولعل في اختلاف مستويات التلقي هذه ما يؤكد الصفة الحججية للقرآن؛ لأنها خاصية أساسية من خصائص الخطاب الإقناعي، الذي يعزفه الدرس الحديث من الناحية الوظيفية من حيث إنه موجّه للتأثير على آراء وسلوك المخاطب.

ومن خلال هذه الدراسة نعتبر أنّ اللغة ليست مجرد أداة للتعبير فقط، وإنما هي حقيقة حججية، فهذا ما يؤكد المنطق الذي بنيت عليه لغة القرآن، من حيث هي لغة وحجة بالغة بحسب ما ذهب إليه دارسو الإعجاز القرآني، أو ما يمكن أن يندرج ضمن ما تسعى إليه

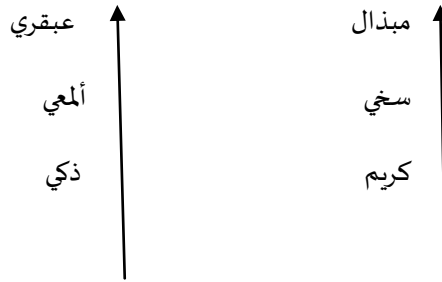
سيمائيات التواصل بدراسة أساليب التواصل أي الوسائل المستعملة قصد التأثير، وهذا يعيدنا إلى الوظيفة الأساسية للغة. ولعلّ من أبرز مستويات السلم الحجاجي في القصص القرآني نذكر ما يلي:

أ. سلمية المعجم: لئن بدت السلمية على النحو الذي عالجها به ديكرود (Ducrot)، يكشفها الجانب التركيبي رغم عسر إدراكها، فإنها في المعجم تبدو أكثر وضوحاً¹، وحسبنا مثالا بعض النماذج التي قدمها ديكرود (Ducrot) في كتابه السلالم الحجاجية، من قبيل الصفة التي تطلق للتعبير عن حالة الطقس (منعش، بارد، قارس) أو (دافئ، ساخن، حار)، وقد يطال السلم الأرقام في تراتبها من الأصغر إلى الأكبر، مثلما ضرب على ذلك ديكرود (Ducrot) مثاله حول: ثمن التذكرة، أو الكميات والمصورات (بضع، بعض، كل...) وأساس هذه السلمية هي قيام المعجم على ضرب خاص من التقابل، ونقصد بالتقابل ذلك الاسترسال في معاني المفردات على النحو التالي



فالصفات هي أكثر أقسام الكلام تعبيرا عن السلمية. والمفيد من كل هذا هو أنّ المعجم بأقسامه ومقوماته تحكمه سلمية تؤكد الوظيفية المرجعية للغة. ودليلنا على ذلك مثلا: درجات الألوان واسترسالها، فالثعالي مثلا قد أحصى في اللون الأبيض أنماط عدة، وكذلك اللون الأسود²، وليس الأمر ببعيد عن الحركة من قبيل مشى، هرول، جرى، التي تنم عن سلمية في الحركة في حد ذاتها، وهذا ما قصدناه عند قولنا إن سلمية المعجم تؤكد الوظيفة

المرجعية للغة. عكس سلمية الخطاب (الإنجاز) التي لا نكتشفها إلا بطريقة مغايرة، وحسب عمليات منطقية كالاستلزام مثلا كما أقر بذلك موشلار (Moeschlar) وريبول (Reboul). في حين أن سلمية المعجم مباشرة بحيث لا تحتاج لإدراكها إلى جهد عقلي، ومثال عن ذلك الاتجاه الجغرافي مثلا: المغرب الأقصى . المغرب الأوسط . المغرب الأدنى، أو الملاحظات التي تسند للطلبة في الامتحان، متوسط . قريب من الحسن . حسن . حسن جدا. وإن كنا حريصين على أن الصفات أكثر الأقسام قياما على السلمية، وذلك للجانب التقويمي الذي تهض عليه. ويمكن للمثال التالي توضيح الأمر أكثر³:



فالصفة التي تقع في أسفل السلم هي أقل صفات السلم حجاجية، وأقلها قياما بعملية التوجيه الحجاجي، في حين أن الصفة التي تقع في أعلى السلم هي الصفة التي تحتوي السمات المشتركة وغير المشتركة لما يكون السلم، وبالتالي فهي أكثر مفردات السلم حجاجية. ويمكن أن نمثل المستوى المعجمي للسلم الحجاجي في القصص القرآني من خلال تفصيل أوصاف الحزن: جاءت درجات الحزن في قصة يوسف عليه السلام من خلال صفات "الأسف، والحزن، والكظم، والبث" في قوله تعالى: **وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسْبَغِىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنُهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ** ﴿١٢٥﴾ **قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُّوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ** ﴿١٢٦﴾ **قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَخُزْنِي إِلَىٰ اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴿١٢٧﴾⁴.

جاء في السياق العام للآية أن سبب حزن يعقوب عليه السلام هو عدم تصديق أبنائه حينما أخبروه عن سرقة بنيامين لصواع الملك. مما جدد حزنه على يوسف عليه السلام حين زعموا أنه أكله الذئب. فعظم حزن يعقوب عليه السلام على مفارقة ابنه يوسف عليه السلام عند هذه الواقعة لوجوه عدة أهمها:

1. أن الحزن الجديد يقوي ويجدد الحزن القديم الكامن في النفس.
2. أن بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة، فكانت المشابهة بينهما أكمل، فكان يعقوب عليه السلام يتسلى برؤيته، فلما بقي بنيامين في بلاد مصر زاد من ألمه ووجده.
3. يعقوب عليه السلام كان يعلم بمكان ابنه بنيامين، في حين يوسف عليه السلام لم يعلم أنه حي أو ميت.
4. أن المصيبة في يوسف كانت أصل مصائبه، فكان الأسف عليه أسفا على الكل.
5. أن الحزن الدائم يوجب البكاء الدائم، وهذا الأخير يوجب العمى، فالحزن الشديد على يوسف عليه السلام كان سببا للعمى، وقيل: "ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف عليه السلام إلى حين لقائه، وتلك المدة كانت ثمانون عاما"⁵. فلهذه الأسباب كلها زادت من وجده على مفارقة ابنه يوسف عليه السلام، وقويت مصيبتة على الجهل بحاله. فمحنة يعقوب عليه السلام تمثلت في ابتلاء ربه بالحزن؛ في ما جاء في حوار يوسف عليه السلام وجبريل قال: "هل لك علم بيعقوب أيها الروح الأمين؟ قال: نعم، وهب الله له البلاء الجميل، وابتلاه بالحزن عليك فهو كظيم، قال: فما قدر حزنه؟ قال: حزن سبعين ثكلى، قال: فماذا له من الأجر يا جبرئيل؟ قال: أجر مائة شهيد"⁶. فيمكننا أن نمثل هذا الحزن في السلمية المعجمية التالية:

الْبَتُّ أَشَدُّ الْحُزْنِ
الْأَسْفُ حُزْنٌ مَعَ غَضَبٍ
الْأَمْسَى وَاللَّهْفُ حُزْنٌ عَلَى الشَّيْءِ يَفُوتُ
الْكَرْبُ الْغَمُّ الَّذِي يَأْخُذُ بِالنَّفْسِ



فصفة " البث " التي تقع في أعلى السلم هي أقوى صفات السلم حجاجية في وصف وتبيين حال يعقوب عليه السلام، وأقواها قياما بعملية التوجيه الحجاجي، في حين أن الصفة التي تقع في أسفل السلم هي صفتي "الكرب والأسى" وبالتالي فهي أقل مفردات السلم حجاجية لأنها تصف حالة زمانية ومكانية معينة. فهذا الحزن الطويل والشديد من لدن يعقوب عليه السلام أثر على جسده و جوارحه؛ فاللسان كان مشغولاً بقوله، والعين بالبكاء عليه وابيضاضهما، والقلب بالغم الشديد على كتمانها.

أما في قصة موسى عليه السلام جاءت صفة "أسف" في قوله تعالى :

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي
أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَا حَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ
إِنَّ الْفُؤَامَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَفْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي
مَعَ الْفُؤَامِ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾

والأسف أشد الغضب. وقيل: "الحزن، وغضبه من حيث له قدرة على تغيير منكرهم"، وأسفه وهو حزنه من حيث علم أنه موضع عقوبة لا يد له بمدفعها ولا بد منها. قال ابن عطية: "والأسف في كلام العرب متى كان من ذي قدرة على من دونه فهو غضب، ومتى كان من الأقل على الأقوى فهو حزن، وتأمل ذلك فهو مطرد، ثم أخذ موسى عليه السلام يوبخهم على إضلالهم، والوعد الحسن ما وعدهم من الوصول إلى جانب الطور الأيمن، وما بعد ذلك من الفتوح في الأرض والمغفرة لمن تاب وآمن وغير ذلك مما وعد الله أهل طاعته"⁸.

يخبر الله تعالى أن موسى عليه السلام رجع إلى قومه من مناجاة ربه وهو غضبان أسف مما صنعوه من عبادة العجل. فقال أبو الدرداء: "الأسف شديد الغضب". وقال ابن عباس والسدي: "أسفا أي حزينا". والأسف أشد الحزن⁹. أي: بئس ما عملتم بعد ذهابي، أعجلتم عبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم. وألقى الألواح على الأرض التي فيها التوراة من شدة الغضب.

أما صفة الكرب في قصة نوح عليه السلام جاءت في قوله تعالى : **وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ** ﴿٦٠﴾¹⁰ . وما تضمنته هذه الآية الكريمة من دعاء نوح عليه السلام ربه جل وعلا أن ينتصر له، من قومه فينتقم منهم، وأن الله أجابه فانتصر له، فأهلكهم جميعا بالغرق، جاء موضحا في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى في الأنبياء: **وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ بَغْرَفْتَهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴿٦١﴾¹¹ . وقوله تعالى أيضا : **وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحَ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ** ﴿٦٢﴾ **وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ** ﴿٦٣﴾ **وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ** ﴿٦٤﴾ **وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ** ﴿٦٥﴾ **سَلَّمَ عَلَىٰ نُوْحٍ فِي الْعَلَمِينَ** ﴿٦٦﴾ **إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** ﴿٦٧﴾ **إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ** ﴿٦٨﴾ **ثُمَّ أَغْرَفْنَا الْآخِرِينَ** ﴿٦٩﴾¹² .

و"الكرب" هو الحزن الشديد والغم، ووصفه بـ "العظيم" لإفادة أنه عظيم في نوعه فهو غم على غم. والمعني به الطوفان، وهو كرب عظيم على الذين وقعوا فيه، فإنجاء نوح عليه السلام منه هو سلامته من الوقوع فيه، لأنه هول في المنظر، وخوف في العاقبة والوقوع فيه موقن بالهلاك. ولا يزال الخوف به حتى يغمره الماء ثم لا يزال في آلام من ضيق النفس ورعدة القروالخوف وتحقيق الهلاك حتى يغرق في الماء. وإنجاء الله إياه نعمة عليه، وإنجاء أهله نعمة أخرى، وهلاك ظالميه نعمة كبرى، وجعل عمران الأرض بذريته نعمة دائمة¹³ . فنوح عليه السلام لبث في قومه "ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله عز وجل، فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يقصدون لأذاه ويتواصون قرنًا بعد قرن، وجيلا بعد جيل على خلافه"¹⁴ .

ومن خلال هذا العرض لمشاهد الحزن وترتيبته في بعض النماذج من القصص القرآني، نجد أن الثعالي يصنف أوصاف الحزن من خلال المراتب الآتية فيقول: "الْكَمَدُ حُزْنٌ لَا يُسْتَطَاعُ إِمْضَاؤُهُ، الْبَثُّ أَشَدُّ الْحُزْنِ، الْكَرْبُ الْغَمُّ الَّذِي يَأْخُذُ بِالنَّفْسِ، السَّدَمُ هَمٌّ فِي نَدَمٍ، الْأَسَى وَاللَّهْفُ حُزْنٌ عَلَى الشَّيْءِ يَفُوتُ، الْوَجُومُ حُزْنٌ يُسَكِّتُ صَاحِبَهُ، الْأَسْفُ حُزْنٌ مَعَ غَضَبٍ، وَالْكَابَةُ سُوءُ الْحَالِ وَالْإِنْكِسَارُ مَعَ الْحُزْنِ، التَّرَحُّ ضِدُّ الْقَرَحِ"¹⁵.

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نرتب ونصنف هذه النماذج (قصة يعقوب، وقصة موسى، وقصة نوح عليهم السلام) في السلم التالي:

الْبَثُّ = أَشَدُّ الْحُزْنِ	قصة يعقوب عليه السلام (ثمانون عاما يبكي على فقدان ابنه+ العوى)
الْأَسْفُ = حُزْنٌ مَعَ غَضَبٍ	قصة موسى عليه السلام (لما استوفى الميقات أربعون ليلة لقي التكذيب والأذى من قومه)
الْكَرْبُ = حزن مع غم	قصة نوح عليه السلام (لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، لم يؤمن منهم إلا قليلا)

فالصفات التي تقع في أسفل السلم من قبيل "الكرب"، هي أقل صفات السلم حاججية، في حين أن الصفة التي تقع في أعلى السلم من قبيل "البث" و"الأسف" هي الصفات التي تحتوي على السمات التأثيرية لما يكون السلم، وبالتالي فهي أكثر مفردات السلم حاججية.

ب. سلمية الصرف: إن السلمية في اللغة كامنة في اللغة كجهاز بجميع مستوياته، ولا نجانب الصواب إذا قلنا إن سلمية الجهاز تتجاوز المستوى المعجمي في ذاته، إلى الجانب الصرفي التصريفي وحسبنا دليلا نظام الزيادة في المعجم، وطريقة تكون المفردة في اللغة وذلك بالزيادة إليها. وكمثال على ذلك نضرب الشواهد التالية:

1- قال تعالى في وصف إسماعيل عليه السلام: **وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ**

إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ¹⁶

2- قال تعالى في وصف إبراهيم عليه السلام عليه السلام: **وَإِذْ كُرِّ**

فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٧﴾ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿١٨﴾¹⁷

في الشاهد الأول جاء وصف إسماعيل عليه السلام في قوله تعالى: **إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ** هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، خص بصدق الوعد عند صبره، وتسليم نفسه للذبح فوق فجاء على لسانه: **بَلِّغْ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنِيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَتَأْتٍ بِفِئَةٍ مِّنْ ثَمَرٍ مُّثْنٍ سَاجِدِينَ** **إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٨﴾**¹⁸

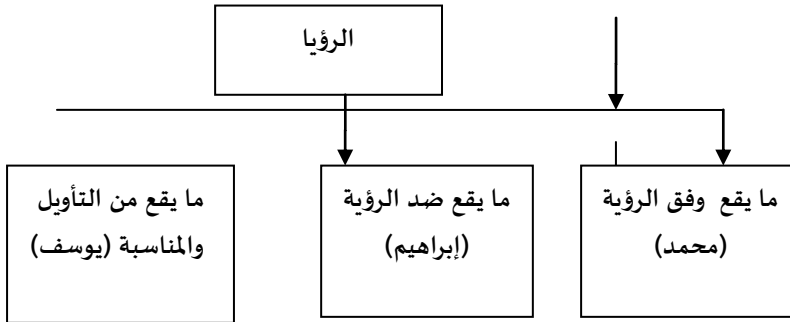
وقول ابن عباس -رضي الله عنه- أيضا في السياق نفسه: "أنه وعد صاحباً له أن ينتظره في مكان، فانتظره سنة"¹⁹. ذكر إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً له وإكراماً كالتلقيب نحو: الحليم، الأواه، والصديق، ولأنه المشهور المتواصف من خصاله²⁰. أما الشاهد الثاني جاء وصف إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: **إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا** "وفي الصديق قولان:

أحدهما: أنه مبالغة في كونه صادقاً، وهو الذي يكون عادته الصدق، لأن هذا البناء يبنى عن ذلك يقال: رجل خمير وسكير للمولع بهذه الأفعال²¹.

وثانيهما: أنه الذي يكون كثير التصديق بالحق حتى يصير مشهوراً به، والأول أولى وذلك لأن المصدق بالشيء لا يوصف بكونه صديقاً، إلا إذا كان صادقاً في ذلك التصديق، فيعود الأمر إلى الأول²²، وأعظم وعْدٍ صدقه وعْدُهُ إياه إبراهيم عليه السلام بأن يجده صابراً على الذبح، في قوله تعالى: **وَلَنَذِيرَنَّهُ أَنْ يُكَلِّمَ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٩﴾ فَذَصَدَّقَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي**

الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٠﴾²³، فصدقت الرؤيا هي "قد فعلت مثل صورة ما رأيت في النوم أنك تفعله. وهذا ثناء من الله تعالى على إبراهيم بمبادرته لامتنال الأمر ولم يتأخر"²⁴. والمقصود من

ذلك تقوية الدلالة على كون الأنبياء صادقين. ويذهب المفسرون إلى أن الرؤيا على ثلاثة أقسام جاءت موضحة في المخطط التالي:



فالرؤية منها ما يقع على وفقها كما في قوله تعالى في حق رسولنا صلى الله عليه وسلم: "لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ"، ثم وقع ذلك الشيء بعينه، ومنها ما يقع على الضد كما في حق إبراهيم عليه السلام فإنه رأى الذبح وكان الحاصل هو الفداء والنجاة، ومنها ما يقع على ضرب من التأويل والمناسبة كما في رؤيا يوسف عليه السلام²⁵، فلهذا السبب وجد أهل التعبير على أن المنامات واقعة على هذه الوجوه الثلاثة. أما فيما يخص سلمية الصرف لصفة "الصدق" فيمكننا أن نمثلها في السلم التالي:

صديق
صدوق
صادق



فالانتقال من صادق إلى صدوق ثم من صدوق إلى صديق فيما نرى قد استدعته الوظيفة الحجاجية للغة²⁶، وبالتالي رُقِّي وقع الكلمة من خلال موقعها في السلم الحجاجي؛ إذ الانتقال من صيغة إلى أخرى بما يقتضيه هذا الانتقال من زيادة، إنما هو في الحقيقة انتقال

من درجة إلى أخرى في السلم. والملاحظ أن ما توفره اللغة من صيغ صرفية من اسم الفاعل، وأسماء التفضيل والصفة المشبهة وصيغ المبالغة، يؤكد سلمية اللغة فاسم الفاعل أقل تعبيراً عن المعنى من صفة المشبهة التي تدل على ملازمة الموصوف للصفة، وصيغة المبالغة أقوى منهما، لاحتوائها على مقولة العدد والكثرة لذلك كانت عملية إنتاجها تقتضي زيادة خاصة، وذلك من خلال مقولة التضعيف والحركة الطويلة.

ولئن كانت السلمية في المعجم يفصحها المرجع والوظيفة المرجعية للغة، فإن سلمية النظام الصرفي تكشفه المفردة في حد ذاتها في مستوى تكوينها، وذلك بزيادة بعض الصراف إلى الجذع الذي تقع عليه الزيادة، وكل زيادة تؤدي إلى زيادة معنى جديد نصطاح عليه بتعميق دلالة اللفظ في السلم (Approfondissement)²⁷. من ذلك زيادة الحركة الطويلة والتضعيف، للحصول على صيغة المبالغة، لتحقيق معنى أقوى لا يحققه اسم الفاعل أو الصفة المشبهة.

ج . سلمية التقسيم البلاغي: نقصد بسلمية التقسيم البلاغي ما يوفره المكون البلاغي للملفوظ من قيمة مضافة عبر تبدلات جهازه، ليحتل درجة مهمة من السلم الحجاجي، وبالتالي ذو طاقة حجاجية تدفع المتلقي إلى الإذعان والتسليم²⁸.

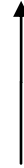
والحقيقة أن سلمية البيان البلاغي ندركها من خلال درجتي الخطاب (الحقيقة/ المجاز)، والمجاز في حد ذاته قائم على التراتبية وحسبنا دليلاً أنواع التشبيه، وأضرب الاستعارة، وصروف الكناية. ويمكن أن نضرب مثالا على هذا بعدم قيام التشبيه رغم تنوعه بنفس الدور والوظيفة الحجاجية في الملفوظ.

البحر كعلي كرما

علي بحر

علي كالبحر

علي كريم



إنّ التشبيه المقلوب هو الذي يقلب فيه طرفي التشبيه، فيسبق فيه المشبه به المشبه، يبدو لنا أنه على كثافة دلالية تؤهله لأن يكون في هرم السلم من التشبيه الضمني والتشبيه التمثيلي، لأن وجه الشبه فيه يكون أقوى وأظهر، ولو أجزل لنا أن نضع أصناف التشبيه ضمن السلم من الأضعف إلى الأقوى لتحصلنا على السلم التالي:

التشبيه المرسل (ما ذكرت فيه الأداة)

التشبيه الضمني	(يكون المشبه والمشبه به ضمنين يلمحان من خلال التركيب)
التشبيه التمثيلي	(إذا كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد)
التشبيه المقلوب	(يكون المشبه مشبهاً به، إذا كان وجه الشبه فيه أقوى وأظهر)
التشبيه المؤكد	(ما حذفت منه الأداة)
التشبيه المفصل	(ما ذكر فيه وجه الشبه)
التشبيه التام	(المستوفي لجميع أركانه)

جاء التشبيه في قصة المنافقين الذين حلوا الربا وجعلوه مثل البيع في قوله تعالى: **قَالُوا**

إِنَّمَا أَلْبَيْعٌ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا²⁹، في هذه الآية تشبيه لطيف

يسمى "التشبيه المقلوب" وهو أعلى مراتب التشبيه؛ حيث يصبح المشبه مشبهاً به مثل قولهم: القمر كوجه زيد، والبحر ككفه. والمقصود هو تشبيه الربا بالبيع المتفق على حله، ولكنّه بلغ اعتقادهم في استحلال الربا، أنهم جعلوه أصلاً وقانوناً فقاموا به، حتى شبهوا به البيع، فنظموا الربا والبيع في سلك واحد لإفضائهما إلى الربح³⁰، وفيه عكس التشبيه، والأصل: إنما الربا مثل البيع، إذ الكلام في الربا لا البيع، قصدوا المبالغة، كأنهم جعلوا الربا أصلاً وأقوى من جهة الربح فقاموا عليه البيع وهو الفرع.

إنّ قراءتنا للتشبيه على هذا النحو يدلنا على مدى خفاء المعنى وظهوره؛ فالمعنى في التشبيه المفصل مثلاً أكثر جلاء منه في التشبيه الضمني أو التمثيلي. ومعلوم أن الحجاج هو لعبة المعنى بين الظهور والخفاء، وأنجع الحجاج ما كان المعنى فيه يتراوح بين الظهور والخفاء. فالتشبيه "مما اتفق العقلاء على شرف قدره، وفخامة أمره في فن البلاغة، وأن تعقيب المعاني به لا

سيما قسم التمثيل منه يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحا، أو ذما، أو افتخارا، أو غير ذلك³¹. وشأن التشبيه كشأن الاستعارة فهي على درجات من القوة والضعف. وكذا الشأن مع أصناف الخبر قد قسمه القدامى إلى ثلاثة مراتب: الابتدائي وهو ما خلا من المؤكدات، ويقع في قاعدة السلم، في حين أن الخبر الطلبي هو ما قام على مؤكد واحد، أما الخبر الإنكاري فهو ما قام على أكثر من مؤكدين. جاء في قصة نوح عليه السلام : وَقَالَ

إِزْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُزْسِيهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٢﴾.

ففي التعليل بالمغفرة والرحمة رمز إلى أن الله وعده بنجاتهم، وذلك من غفرانه ورحمته. وأكد بـ " إِنَّ " و "لام الابتداء" تحقيقاً لأتباعه بأن الله رحمهم بالإنجاء من الغرق³³. وهو ما يقابل ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين، كما قال : إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾. وعليه فإن قراءة القدامى للخبر على هذا النحو تؤهلنا إلى أن

ندرسه ضمن سلمية اللغة فتتحصل على الشكل التالي:

- الإنكاري: إن ربي لغفور رحيم
- الطلبي: إن ربي غفور رحيم
- الابتدائي: ربي غفور رحيم



إنّ هذه السلمية الناجمة عن اللغة بجميع أنظمتها معجما وصرفا وبلاغة هي التي سيقع الانطلاق منها في تحديد سلمية الخطاب-الانجاز، وينضاف إليها ما يوفره التركيب وخصائصه من علاقات خاصة. ومنه نجد أن سلمية اللغة مبثوثة في جميع أنظمتها يكمل بعضها بعضا، ولاسيما إذا أضيف عامل المقام، أو وضعيات الخطاب، فإنها تساعدنا على اكتشاف هذه السلمية علاوة على ما صرح به أنسكومبر وديكرو، من أن الوظيفة الأولية للغة هي الوظيفة

الحجاجية، ويقتضي إظهار هذه الوظيفة أن تكون اللغة سلمية تراتبية كيفما تتفاضل الأقوال وتتمايز نجاعتها في استمالة المتلقي وضمان تسليمه.

والملاحظ من هذه المستويات للسلم الحجاجي أنها تهدف في أساسها إلى تأكيد نتيجة معينة، تسبقها معطيات أو بالأحرى مقدمات، تسهم بطريقة مضبوطة في التقديم، لتحقيق القضية المطروحة، أو دحضها. يترتب على هذا أن السلم الحجاجي يتمتع بالخصائص التالية:

1. القوة: هناك علاقة بين الترتاب الحجاجي والقوة؛ حيث تمتلك كل حجة قوة قد تزيد، أو تنقص على قوة حجة أخرى. بمعنى أن العلاقات الحجاجية تكون متفاوتة في قوتها بحسب القوة الحجاجية لكل حجة، ومن ثم فالعلاقات الحجاجية تتصف بالقصدية التي تستند إلى مجموعة من الاستراتيجيات التي تسعى إلى غاية واحدة.

2. التوجيه الحجاجي: ترتكز العلاقات الحجاجية على ما نسميه "التوجيه" الذي يقوم بتحديد تسلسل القضايا، وفيه ينتهي الملفوظ لنفس الفئة حجاجية، ويسعى لتحقيق غرض معينة. ويتضح لنا في الأخير أن القيمة الحجاجية للملفوظ ما لا تنحصر في المعلومات التي ينقلها؛ بل تتوقف على التوجيه الحجاجي لهذا الملفوظ الذي ينتهي بالمخاطب إلى قصد محدد. فالعلاقات الحجاجية تتميز بالقصدية الحجاجية التي تساهم في تحديد التوجه الحجاجي للملفوظ.

الهوامش:

¹ (إذ أن هذا النمط من التأليف المعجمي له أهمية في الدرس اللغوي، لأنه يوضح الخصائص التي تتسم بها اللغة موضوع الدرس من حيث اللفظة المفردة ومكانها في الاستعمال. على أننا نلفت إلى أن الثعالي لم يكن يتجرى تقديم كتاب شامل في هذا الموضوع، لأنه كان يكتفي بإيراد ألفاظ قليلة في كثير من الموضوعات التي تناولها. ومن هذا القسم من كتابه نختار قوله في أوائل الأشياء: "الصبح أول النهار، الغسق أول الليل، الوسي أول المطر، البارض أول النبت، اللعاع أول الزرع، السلاف أول العصير، الباكورة أول الفاكهة، البكر أول الولد، الطليعة أول الجيش..." أبو منصور الثعالي، فقه اللغة وسر العربية، القاهرة، 1284هـ، ص: 19.

⁽²⁾ ينظر: الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، في باب ترتيب البياض فيقول: "أبيض، يقق، لبق، واضح، ناصع، هجان وخالص" ص: 251. أما ترتيب السواد جاء في باب ترتيب السواد: "أسود، أسحم، جون، فاحم، حالك، حانك، حلكوك، سحكوك، خداري، دجوجي، غريب، غدافي" ص: 274.

⁽³⁾ ينظر: عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين، صفاقس، 2011، ص: 122.

⁽⁴⁾ يوسف، الآية: 86.

⁽⁵⁾ تفسير الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسين الرازي، دار إحياء التراث العربي، ج 18، ص: 502.

⁽⁶⁾ الثعلبي النيسابوري أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم، الكشف والبيان، دار إحياء التراث العربي، 2002، ط 1، ج 5، ص: 250.

⁽⁷⁾ الأعراف، الآية: 150.

⁽⁸⁾ أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تج: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001، ط 1، ج 6، ص: 249.

⁽⁹⁾ البغوي، معالم التنزيل، ج 3، ص: 284.

⁽¹⁰⁾ الأنبياء، الآية: 76.

⁽¹¹⁾ الأنبياء، الآية: 77.

⁽¹²⁾ الصافات، الآيات: 75، 82.

⁽¹³⁾ ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 23، ص: 47.

⁽¹⁴⁾ ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة، 1999، ج 5، ص: 354.

⁽¹⁵⁾ ينظر: الثعالبي، فقه اللغة، ج 1، ص: 657.

⁽¹⁶⁾ سورة مريم، الآية: 54.

⁽¹⁷⁾ سورة مريم، الآية: 41.

⁽¹⁸⁾ سورة الصافات، الآية: 102.

⁽¹⁹⁾ الزمخشري، الكشاف، ج 3، ص: 25.

⁽²⁰⁾ أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج 6، ص: 188.

⁽²¹⁾ الرازي، تفسير الفخر الرازي، ج 21، ص: 545.

⁽²²⁾ المصدر نفسه، ص: 545.

⁽²³⁾ سورة الصافات، الآية: 104، 105.

⁽²⁴⁾ الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 23، ص: 154.

⁽²⁵⁾ ينظر: الرازي، تفسير الفخر الرازي، ج 26، ص: 355.

⁽²⁶⁾ فصفة الصدوق جاءت عند أهل اللغة لتدل على رقي في السلم من صفة الصادق، وصفة الصديق أيضا، وهذا ابن منظور يقول: "ورجل صدوق أبلغ من الصادق...، وصدق صادق كقولهم شعر شاعر، يريدون

المبالغة والاشارة. والصدّيق الدائم التصديق، ويكون الذي يصدق قوله بالعمل."ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج10، 193.

²⁷ عز الدين الناجح ، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ص: 127.

²⁸ المرجع نفسه، ص: 127.

²⁹ البقرة، الآية: 275.

³⁰ ينظر: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي، البحر

المديد، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ج1، ص: 274.

³¹ الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: الشيخ بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت، 1998،

ص: 203.

³² هود، الآية: 41.

³³ الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج12، ص: 74.

³⁴ الأعراف، الآية: 167.